

الفصل الرابع اللغة العربية

١

عناصر سامية مغرقة في القدم^(١)

أشرنا في غير هذا الموضع إلى أن اللغات السامية تتشابه في كثير من الكلمات والضمائر والأعداد تشابهاً يثبت القرابة بينها ، وهو تشابه يفيدنا في معرفة نمو كل لغة من هذه اللغات وتطورها على مر التاريخ حتى تشكلت في صورتها الأخيرة . وقد أبلى علماء الساميات بلاء مشكوراً في الدراسة المقارنة لهذه اللغات من حيث الصيغ والألفاظ والتصريف والإعراب والأصوات ، وهي دراسة تفيدنا فائدة جلتى في التأريخ لكثير من الظواهر اللغوية ومعرفة قديمها من حديثها . فإن لاحظنا تشابهاً بين لغتين من هذه اللغات في ظاهرة بعينها ورجعنا إلى اللغات الأخرى ووجدنا نفس التشابه كان معنى ذلك أن الظاهرة قديمة وأنها ترتقى إلى العصر الذي كانت هذه اللغات متحدة فيه . وقد يقع التشابه في الظاهرة في لغتين غير متجاورتين ، فإما أن يرجع إلى أصل قديم ، وإما أن يكون ثمرة تطور تاريخي في كل منهما أدى إلى نفس النتيجة ، أما إذا كانتا متجاورتين كالعربية والآرامية فإما أن تكون الظاهرة قديمة ترجع إلى أزمان اتحادهما ، وإما أن تكون إحداهما تأثرت الأخرى . ولعل في هذا ما يدل على أن أسلافنا توسعوا أكثر مما ينبغي حين درسوا الدخيل في عربيتنا ، فوقفوا عند ألفاظ كثيرة وقالوا إنها سريانية آرامية ، غير ملتفتين إلى أن طائفة من هذه الألفاظ ترجع إلى الأصل السامي القديم ، فلا يقال إن العرب أخذوها من السريان ولا إن السريان أخذوها من العرب ، بل يقال إنها من الكلمات السامية

(١) الإسلام لجواد علي ومحاضرات خليل يحيى نامى
بكلية الآداب في جامعة القاهرة .

(١) راجع في هذه العناصر كتاب « التطور
النحوي للغة العربية » لبرجستراسر (طبع القاهرة
١٩٢٩) وإلجزء السابع من تاريخ العرب قبل

القديمة التي تداولها الساميون في زمان اتحادهم قبل تفرق لهجاتهم وتطورها إلى لغات مستقلة لها مشخصاتها وسماتها الصرفية وغير الصرفية .

ونضرب مثالا آخر أثار ضجة واسعة بين المستشرقين ، وهو ما زعمه فولرز من أن القرآن الكريم كان في بادئ الأمر غير مُعرب ، إذ كان بلهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة - فيما يزعم - كانت غير معربة ، وكانت تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو والعربية : ومضى يقول إن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو المعربة . وقد رفض كثير من المستشرقين وعلى رأسهم بوهل ونولدكه وجاير هذا الرأي رفضاً باتاً^(١) ، ويقول يوهان فك : « أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن قد حافظ أيضاً على غاية التصرف الإعرابي فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالاً للشك في إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الإختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك ، انظر مثلاً آية ٢٨ من سورة فاطر : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وآية ٣ من سورة التوبة : (أن الله برىء من المشركين ورسوله) وآية ١٢٤ من سورة البقرة : (وإذا ابتلى إبراهيم ربه) وآية ٨ من سورة النساء : (وإذا حضر القسمة أولو القربى) فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات . . . لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حياً صحيحاً .
يُضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه في مثل آية ١٠٣ من سورة النحل : (وهذا لسان عربي مبين) وصریح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب أى قبائل البدو »^(٢) .

ومما يثبت بطلان رأى فولرز أيضاً أنه لم يُعرف عن قبيلة عربية من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة خالية من قواعد النحو والعربية . وقد نسى أو تناسى أن قراءات القرآن الشريف توفيقية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه قرأه على الصحابة في لهجة غير معربة لتضى على اللهجات المعربة من حوله . وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأى وبطلانه نجد كاله (Kahle) يحاول أن يدلل

(١) انظر مادة قرآن في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ القرآن لتولدكه وكتاب العربية ليوهان فك ص ٣ وما بعدها .
(٢) العربية ليوهان فك ص ٣ .

على صحته ، تارة بما وجده من نصوص متأخرة تحثّ على مراعاة الإعراب في ترتيب القرآن ، وتارة بما يزعمه من أن قرآء القرآن الأولين رحلوا لمخالطة عرب البادية ، حتى يفقهوا قواعد شعرهم النحوية والصرفية ويطبّقوها على الذكر الحكيم^(١) ، وهو يستمد في الشطر الثاني لقوله وزعمه من فولرز ، أما الشطر الأول فواضح البطلان ، لأن هذه النصوص إنما تشير إلى مخافة العلماء في عصور اللهجات العامية المولدة من أن يهجم بعض العامة على قراءة القرآن قراءة غير معربة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ اللغات السامية وعرضنا هذه المسألة تبين لنا أنها تفقد السند التاريخي ، فإن الإعراب في الفصحى ليس خاصة مستحدثة نشأت بين بعض قبائل العرب وفي بعض لهجاتهم البدوية بعد أن لم تكن موجودة ، وإنما هو خاصة سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكادية ، كما تشترك في بعضه الحبشية وغيرها من اللغات السامية . وحدث في سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين أن اكتشف العلماء في رأس شمرا بالقرب من اللاذقية نقوشاً كثيرة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد في موضع كان يعرف قديماً باسم أوجريت (Ugarit) وجدوا في حل رموزها ، وسرعان ما وجدوها تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة ، فسموها باسم موضعها تمييزاً لها ، ولاحظوا أن هذه اللغة الأوجريتية يشيع فيها الإعراب مثل العربية ، وأيضاً فإنهم وجدوا فيها ظواهر المنع من الصرف ، وكان المظنون أنه خاصة عربية .

ومعنى ذلك أنه ثبت بين علماء الساميات أن ظاهرتي الإعراب والمنع من الصرف قديمتان في اللغات السامية وأن العربية احتفظت بهما ، بينما فقدتهما مع الزمن أكثر هذه اللغات ، فهما ليستأمن الظواهر المستجدة ، بحيث يمكن أن ينسبوا إلى بعض قبائل البدو كما وهم فولرز وكاله ، وإنما هما من الظواهر السامية القديمة ، وليس بين أيدينا نص واحد يشهد بأن قريشاً أو بعض قبائل العرب الشماليين ضعف عندهم الإعراب فأهملوه في لهجتهم الخاصة ، بل كان الإعراب عاماً بينهم جميعاً في الشرق والغرب ، وفي الحجاز ونجد وغير الحجاز ونجد ، فن الخطأ البين أن يزعم زاعم أن الإعراب كان مهملاً في لغة قريش ، فإن ذلك مجرد حدس لا قيمة له .

(١) راجع ما ساقه عبد الخليم النجار من تعليقات في كتاب العربية المذكور .

ومن ظواهر العربية التي أكدت اللغة الأوجريية أنه قديم ظاهرة التعريف بأل ، وهي تقابل حرف الهاء الذي كان يستخدمه العبريون والآراميون في التعريف ، وكان الأولون يلحقونه ببدء الكلمة والأخيرةون يلحقونه بآخرها . وكان أصحاب النقوش الصفوية من قدماء العرب يجارون العبريين في استخدام هذا الحرف في التعريف ومثلهم التموديون واللحيانيون . واستخدم النبط في نقوشهم أل استخداماً واسعاً ، إذ نراهم يضعونها مع أسماء آلهتهم مثل الله والللات والعزى ، وقد تحذف الألف منها في الكتابة فيكتبون وهب الله وعبد الله هكذا وهب لى وعبد لى بإشباع الكسرة ومدها بحيث تتولد منها الياء ، ويقول اللغويون إن الأزدي يشبعون حركات الإعراب ومعنى ذلك أن الإشباع قديم في العربية . ويدل حذف الألف في مثل وهب لى أن النبط كانوا يسهلون الهمزة ولا يحققونها على نحو ما أثار عن قریش وأهل الحجاز في عدم تحقيق الهمزة لا في أل وحدها بل في كلمات كثيرة ، فيقولون في أسأل : سأل . وكل ذلك معناه أن أداة التعريف في العربية قديمة وأن تسهيل الهمزة حدث قبل العصر الجاهلى ، إذ كانت تميل إليه بعض القبائل العربية ممن كانوا يسكنون في غربي الجزيرة مثل النبط والحجازيين .

وإذا أخذنا نقارن بين صيغ الفعل في العربية وصيغته في اللغات السامية وجدنا همزة التعدية في صيغة أفعل العربية تشيع في اللغتين الحبشية والسريانية ، بينما تعبّر العربية والسبئية وبعض اللهجات الآرامية عنه بالهاء ، فهفعل عندهم تقابل أفعل في العربية ، وكان اللحيانيون والتموديون يستخدمون الصيغتين جميعاً . وفي الوقت نفسه نجد النقوش اليمنية ما عدا السبئية ، ونقصد المعينية والقبتانية والأوسانية والحضرية تعبّر عنه بسفعل ، وتعبر عنه الأكديّة بشفعل واحتفظت العربية على نحو ما نعرف بالسين في وزن استفعل ، ومن ثم ذهب ليتمان إلى أن أداة التعدية كانت في الأول سيناً ، ثم صارت شيئاً في الأكديّة ، وصارت السين هاء عند بعض الساميين ، ثم صارت الهاء همزة في العربية والسريانية والحبشية^(١) . ولعل من الطريف أن من يرجع إلى العربية يجد فيها بقايا من هذه الصيغ جميعاً كصيغة هراق

المجلد العاشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٢٥ وما بعدها .

(١) انظر مقالة ليتمان عن « بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي » بالجزء الأول من

الماء بمعنى أراقه . يقول ابن يعيش : « اعلم أنهم قالوا أهرق فن قال هراق فالهاء عنده بدل من همزة أراق على حد هردت أن أفعل في أردت ونظائره »^(١) وكأنه كان بينهم من يجمع في التعدية بين الهمزة والهاء ، ومن يكتفي بإحداهما في مثل هذه الكلمة ، ويظهر أن هذا كان كثيراً إذ ينص ابن يعيش على أن له نظائر متعددة ، فيقواون هراح في أراح وهنار في أنار وهكذا . وفي القاموس المحيط الهذروف كعصفور : السريع ، وهذرف : أسرع . ومعنى ذلك أن بين الأسماء صيغة احتفظت بتلك الهاء لأنها اشتقت من أفعالها ، يقول صاحب القاموس : « الهِجْرَع كدرهم : الجبان لأنه من الجزع » .

أما وزن سفعل الذي استخدمته بعض اللهجات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية فإن العربية احتفظت به في صيغة استفعل . وفي المزهر من مزيد الثلاثي هفعل في مثل هلقم إذا أكبر اللقم وسفعل في مثل سنسب بمعنى نبس^(٢) . ويمكن أن يُرَدَّ إلى هذه الصيغة كثير من الأفعال التي تبتدئ بالسين ، كما يرد إلى صيغة هفعل كثير من الأفعال التي تبتدئ بالهاء ، فهدر مثلا يمكن أن يكون أصلها در وأضيفت إليها الهاء وخففت الراء ، وسكن أصلها كان من كان التامة . ثم حذف الألف . وبهذا القياس يمكن أن نعم النظر في بعض الكلمات المبدوءة بالسين فردها إلى صيغة شفعل الأكديّة ، فشع يمكن أن يكون أصلها شوسع من وسع وشوش من وشّ وهكذا . وكان العربية كانت تستخدم في بعض أزمستها القديمة كل هذه الصيغ . ثم تطورت بصيغة هفعل إلى أفعال وآثرتها معرصة عن الصيغ الأخرى لأنها أخف في النطق وأيسر .

ومن الظواهر التي تتقارب فيها العربية من أخواتها السامية الضمائر ، إذ نرى مثلا : أنا تختص بالتكلم مع زيادة مميزات عددية أو جنسية في بعض اللغات ، بينما تختص التاء بضمير الرفع المتصل ، وقد تخلفها الكاف كما في الأكديّة ، على نحو ما جاء على لسان بعض الرجاز يهجو ابن الزبير^(٣) :

يا بن الزبير طالما عصيكاً وطالما عنيّتنا إليكا

فقال عصيك بدلًا من عصيت . وكما تشابه اللغات السامية في الضمائر تشابه في

(٣) النوادر في اللغة لأبي زيد (طبعة بيروت) ص ١٠٥ وأنساب الأشراف للبلاذري ٤٨/١١ .

(١) شرح المفصل للزحزحى ٥/١٠
(٢) المزهر للسيوطي ٤٠/٢ .

أسماء الصلة والإشارة ، ويدل الاسم الموصول « ذو » عند اللطائيين على أن الأسماء الموصولة كانت في الأصل أسماء إشارة ، وهو في الحبشية « ذ » وفي السريانية « د » ، و « دى » في النقوش النبطية . وأيضاً فإن هذه اللغات تتشابه في كثير من حروف العطف وحروف الجر وأدوات الاستفهام وفي الميل إلى المخالفة بين الذكر والأنثى رغبة في الازدواج كما يتضح في العدد ومخالفته للمعدود في الجنس وفي تأنيث الفعل مع جمع التكسير المذكور .

وتشترك العربية مع أخواتها السامية في أن الأسماء الثنائية أقدم أسماها ، وفي العربية أمثلة كثيرة منها احتفظت بها ، وقد أخذت - كأخواتها - تشتق منها الثلاثي وغيره أو تولدهما ، ومن أقدم ما اتبعته في ذلك تضعيف الحرف الثاني أو زيادة واو أو ياء في أوله أو زيادة حرف لين في وسطه أو نهايته . وقد تتكرر المادة الثنائية مثل حصحص وصرصر وسلسل . ولعلماء الساميات أبحاث في الكلمات التي تشترك فيها العربية مع غيرها من اللغات السامية والتي يمكن أن تعد من أقدم عناصرها ، وهم يردون بعضها إلى أسماء الإنسان وأحواله مثل ذكر وأنثى وأب وأم وابن وبنت وأخ وبعل وبكر وأمة وضرة ، ومن الأفعال القديمة المتعلقة بهذه الأسماء: ولد وملاك . ومن هذه الأسماء المشتركة أسماء الحيوانات مثل نمر وذئب وكلب وخنزير وإبل وثور وحمار ونسر وعقرب وذباب ومعها فعل تبيح . ومن أسماء النباتات عنب وثوم وقثاء وكمون وزرع وسنبلة . ومن أعضاء البدن رأس وعين وأذن وأنف وفم ولسان وسن وشعر ويدا وظفر وركبة وكتف وذئب وقرن وعظم وكرش وكبد وكلية ونفس ودم ، ومعها تميمع وطعم . وصفات مثل شيب ويمين وموت وقبر . ومن أجزاء العالم سماء وشمس وكوكب وأرض وحقل وماء ومنبع وبئر ، ومما يتبعها ظل ويوم وليلة وبرق وطب . ثم بعض أسماء البيت وأقسامه وما يتبعه مثل بيت وعمود وعرش وقوس وحظ أصل معناه السهم وجبل وإناء ومما يتبعها من الأفعال رمى . ومن المأكولات والمشروبات قمح ودبس وسكر ويتبعها طحن وطبخ وقلى . وإلى جانب ذلك عدد كبير من الأفعال والأسماء مثل كان ونشأ وعلا وقدم وقرب وبكى وصرخ وأخذ وذكر وسأل وبشر ورحم وبلّ ونقل ورتب وصغر ورعى وسقى وركب ونظر وفقد وسلم وذبح وبارك ووقر ، ومثل اسم وكل وأسماء العدد إلى العشرة والمائة (١)

(١) راجع في ذلك كله يرجشتراسر ص ١٤٠ وما بعدها .

وهناك أسماء وأفعال تشترك فيها العربية مع اثنتين أو ثلاث أو أربع من اللغات السامية، والحكم في مثل هذه الكلمات مشكل، فلما أن تكون من الكلمات السامية الأصلية، أو تكون بعض الفروع اختصت بها بعد تفرقها، بمعنى أنها نشأت بينها، وتكونت في زمن متأخر. ومن علماء الساميات من يظن أن ما تنفرد به العربية من كلمات لا توجد في أخواتها السامية هو من السامى الأصيل احتفظت به بينما سقط من أخواتها، ويذهب برجشتراسر إلى أن « هذا بعيد عن الاحتمال للغاية ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون اللغة العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها . . وهذا من الأوهام التي لا سبب لها، فإن اللغة العربية ترقى رقياً بعيداً بالقياس إلى أخواتها الساميات . . ولا بد من أن نفترض أن اللغة العربية اخترعت ألوفاً من الكلمات الجديدة ولا عجب في ذلك بعد ما شاهدناه مراراً من ميلها إلى التخصص وإلى اختراع العبارات الجديدة المحدودة»^(١) ويضرب مثيلين لذلك: كثرة ما اخترعته في باب الإبل وأوصافها وشياتها وأمراضها وأدواتها من أسماء، ومثل ثان هو ما اخترعته من أدوات النفي، إذ تشترك مع اللغات السامية في أدواته الأساسية « لا » ثم تنفرد بما اشتقته من أدوات كثيرة لا يوجد منها في أخواتها سوى ليس، إذ نجد فيها لم بزيادة الميم وحذف الألف، ولما بزيادة ما على لم، ولن بزيادة النون، وأضافتم إلى ذلك أدوات جديدة هي ما وإن وغير، وبذلك عددت وظائف النفي ونوعها .

ومعنى كل ما قدمنا أن هناك عناصر في العربية ترجع إلى أقدم أزمنتها، وأخرى جديدة، وقد عقد ليتمان مقالين طويلين^(٢) بحث فيهما أسماء الأعلام في اللغات السامية متخذاً منها ما يدل على تاريخها وصيغها وأديانها وعاداتها . ولا حظ أن منها أسماء مركبة وأسماء مفردة وأسماء اسمية وأسماء فعلية وأسماء دينية وأسماء دنيوية وأسماء مكانية وأسماء زمانية وأسماء تخصص أمنية أو فرحاً أو صفة أو دعاء وأسماء لرجال مشهورين أو نساء مشهورات، بالإضافة إلى أسماء أجنبية . ومن طريف ما لاحظته أن النبط كانوا يلحقون في كتابتهم ونقوشهم الواو بآخر الأعلام أحياناً، يقول: والواو هذه تشير إلى أن الاسم معرب، وأما الأسماء المبنية فكتبوها بلا واو في آخرها . وأخذ

المجلد العاشر، العدد الثالث، والمجلد الحادي

(١) برجشتراسر ص ١٤٢ .

عشر، العدد الأول .

(٢) انظر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة

العرب بعد ذلك هذه الواو من الخط النبطي فألحقوها بعمر و فرقا بينه وبين عمر^(١) وقارن مقارنات واسعة بين الأعلام في العربية منذ الجاهلية وبين لهجاتها القديمة من صفوية ونبطية ، وأدلى في هذا الصدد بملاحظات جيدة .

وعلى هذا النحو لا يزال علماء الساميات يقارنون مقارنات طريفة بين العربية الجاهلية وما سبقها من لهجات كتبت في نقوش قديمة ، كما يقارنون بينها وبين العربية الجنوبية اليمنية وغيرها من أخواتها السامية محاولين استخلاص عناصرها وظواهرها المعروفة في القدم ، والتي جدت على مر التاريخ . وقد لاحظوا أنها هي والحبشية واللهجات اليمنية القديمة تكثر من جموع التكسير كثرة مفرطة ، كما لاحظوا أنها هي والعربية الجنوبية أو اليمنية تتميزان بوجود حرف الظاء فيهما ، وبما يميزها أيضاً حرف الضاد ، ولهم كلام كثير فيه وفي مخرجه ، وتبادله مع الظاء واللام في بعض الكلمات .

٢

لهجات عربية قديمة^(٢)

عثر علماء الساميات على نقوش أربع لهجات عربية قديمة ، منها ثلاث كتبت بالخط المسند الجنوبي ، وهي اللهجة التمودية واللحيانة والصنوية ، وواحدة كتبت بالخط الآرامي ، وهي اللهجة النبطية . وقد جاء ذكر ثمود في القرآن الكريم مراراً ، وكانوا ينزلون في مدائن صالح وما حولها ، وتمتد عشائرهم غرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى جبلي أجأ وسلمى ، وقد تردد ذكرهم عند الإغريق والرومان وفي كتابات آشورية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وترجع نقوشهم التي عثر عليها إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعده ، وهي تنتشر في كثير من البلاد ، فهي فضلا عن وجودها في أماكن إقامتهم وسكناتهم نجدتها مبعثرة في الطائف وطورسيناء ومصر بوادي الحمامات ، وربما كان في ذلك ما يدل على أن أهلها

ليتان في العدد الثاني من الجزء العاشر بمجلة كلية الآداب، وكذلك مقاله : « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » في الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية .

(١) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ص ٤٣ .

(٢) انظر في هذه اللهجات الجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ومقالة

كانوا أصحاب تجارة واسعة . ونقوشهم قصيرة وجمهورها مما كتبوه أو نقشوه ليسجلوا أسماءهم للذكرى ، وقليل منها أدعية لأهتهم ، وهي صعبة القراءة لأن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبي ، مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين ، وهو خال من الشكل ومن علامات الإشباع والحركات والتشديد . وما يزيد في صعوبته أيضاً ، أو بعبارة أدق مما يزيد في صعوبة الأحكام اللغوية عليه أن جميع نقوشه بضمير الغائب وأنهم كثيراً ما يحذفون منه بعض الحروف كالنون من ابن والضمير من « لى » وأيضاً فإنه تختلط به آثار عبرية وآرامية .

وهذه النقوش مع أنها كتبت بالخط المسند الجنوبي نقوشاً للعرب الشماليين ، فاللغة التي تعبّر عنها عربية شمالية ، ويتضح ذلك في تراكيبها الصرفية والنحوية وفي اشتقاقات أفعالها وأزمنتها . ونجد عندهم صيغة المثني بجانب صيغة الجمع كما نجد نفس أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف الجر من مثل اللام والباء وإلى وعلى وحرف العطف واو . غير أن أداة التعريف الشائعة عندهم هي الهاء لا أل ، وكذلك الشأن عند اللحيانيين والصفويين ، أما عند النبط فهي أل ، ومن هنا يصح أن نطلق على الأولين اسم أصحاب لهجات الهاء ، وهم في ذلك يتطابقون مع العبريين ، وأيضاً فإنه يشيع عند التموديين واللحيانيين تعدية الفعل الثلاثي بالهاء بدلا من الهزرة ، مثلهم في ذلك مثل العبريين والسبثيين ، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع .

واللهجة القديمة الثانية هي اللهجة اللحيانية نسبة إلى منازل أهلها من بني لحيان الذين ذُكروا في نقوشها ، وقد عثر عليها علماء الساميات منشورة في شمالي الحجاز بمنطقة العُلا الحالية ، وكانت حاضرتهم تسمى دادان بالقرب من مدائن صالح ، ويختلف الباحثون في تاريخهم وهل كانوا قبل الميلاد أو بعده ، بل منهم من يتأخر بهم حتى القرن الخامس للميلاد . وتلقانا في نقوشهم نفس الصعوبات التي تلقانا في نقوش التموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد . وهم يعرفون بالهاء على شاكلة التموديين ، وقد يعرفون بأل أو باللام على شاكلة العربية الجاهلية ، وقد يجمعون بينهما مثل هَلِحَمَى بمعنى الحمى . وهم يستبقون بين صيغ الفعل على صيغتي هفعل وسفعل ونراهم يلحقون بالماضي تاء التأنيث كما نراهم يشيرون بالذال

وذه وذات . ومن أسماهم الموصولة من وما وذو المعروفة في لهجة طيء . ومن آلمتهم التي يرددون ذكرها بعل والعزى ومناة وودّ وإلهة . ومن أسماهم عبد وودّ وعبد شمس وعبد مناة وبعيث وعمر وطود . ومن ألفاظهم رب ويوم وبيت وحية وشيعة وحرّة ورتاج وإيلاف وكبير وقديس وصانع ونحاس ووارث وعابد ومقدر ومنعم . وهم يكونون وينسبون على نحو ما نعرف في الفصحى ، وأيضاً نجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع السالم والمكسر وهم يجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون كما يجمعون الإناث بالألف والتاء . ومن أدوات الجر والإضافة عندهم الباء واللام وفي ومن ومع وقبل وبعد وتحت ولدى وخلف ، ونزاهم ينفون بلا .

أما اللهجة الصفوية فقد نسبت إلى جبل الصفاة القائم في شرق حوران ببادية الشام ، ولم توجد النقوش به ، وإنما وجدت في الحرّة الواقعة بينه وبين حوران ، ولم ينسبها علماء الساميات إليها بحيث يقولون النقوش الحرية مخافة اللبس لأن الجزيرة العربية تمتلئ بمجرات كثيرة ، لذلك رأوا نسبتها إلى الجبل المذكور ، واتخذوه علماء عليها ، وقد عثروا على نقوش منها في مواضع أخرى كالحرّة الواقعة في جنوبي دمشق والصالحية على الفرات . وواضح أنها لا تنسب إلى قوم بأعيانهم أو إلى أمكنة بعينها ، إنما هي تسمية اصطلاحية . وخطها مشتق من الخط المسند الجنوبي كاللهجتين السابقتين ولذلك يصادف العلماء فيه نفس الصعوبات التي أشرنا إليها ، وبما يزيد صعوبة أن رسوم حروفها تتشابه فالباء تشبه الظاء والخاء تشبه التاء وكذلك تشبه اللام النون والهاء الصاد ، وقد يبدأ الكاتب من اليمين إلى اليسار وقد يعكس الاتجاه فيبدأ من اليسار إلى اليمين .

ونقوشهم قصيرة وشخصية ، وقد يضمونها وثائق تملك أو أدعية للآلهة ، وقد يذكر تاريخ نقشها فيؤرخونه بتاريخ بُصرى أو ببعض حروب النبط والروم . وهي تسبق الميلاد وتمتد بعده قروناً . ونرى أداة التعريف الشائعة عندهم الهاء ، وقد وردت عندهم أسماء قليلة معرفة بالألف واللام مثل الأوس والعبد . وتشيع عندهم إضافة المنعوت إلى النعت على شاكلة الحبشية والعبرية المتأخرة وبعض اللهجات الجاهلية ، فيقولون مثلاً « جبل الأحمر » بدلا من الجبل الأحمر ، ويتبع اسم الإشارة المشار إليه ولا يتقدمه فيقولون أويكتبون « جو ، ذ » أي هذا الوادى ، بالضبط

كما نصنع في عاميتنا المصرية فنقول « النهاردا » بدلا من هذا النهار . وتلقانا عندهم ذو الطائية التي تُستخدم اسماً موصولاً في مثالها المشهور « بئرى ذوحفرت وذو طويت » أى الذى حفرت والذى طويت .

وهذه اللهجة بصفة عامة أقرب إلى عربية الجاهليين من اللهجتين اللحيانية والثمودية سواء في الضمائر واستخدام العدد أو في أسماء الأعلام وصيغ الفعل ، فنحن لا نجد عندهم هفعل ، بينما نجد الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول ، وهى تشابه مع العربية الفصحى في تصريف الأفعال ومصادرهما ففعل مصدره تفعيل أو تفعلة وفاعل مصدره فعال أو مفاعلة وأفعل مصدره إفعال وانفعل مصدره انفعل وهلم جراً . ونراها تدخل تاء التأنيث على الكلمة للفرق بين المذكر والمؤنث ، وتشيع فيها أدوات الجر المعروفة في العربية الفصيحة ، وتعطف بالواو والفاء ، وتنادى بها وبيا . والحروف جميعها هى نفس حروف عربيتنا عدداً ، ويشيع تسهيل الهجزة فيها ، وخاصة في أول الكلمة فعندهم ونس بدلا من أنس وودم بدلا من آدم . وكانت قبيلة هذيل تصنع نفس الصنيع فتقول وشاح بدلا من إشاح . ومن ذلك أنهم يقولون واكل بدلا من آكل على نحو ما نصنع في لهجاتنا العربية المعاصرة ، وهم لا يدغمون الحرف الثانى مع الثالث في الأسماء المشتقة من الفعل المضاعف مثل ظن فيقولون أو يكتبون ظانن ، بالضبط كما نطق في عاميتنا مادد بدلا من ماد . ومن أفعالهم المنقوصة التى احتفظت بها العربية : شتى وبني وأنى ونجا ورعى ودعى ، ودائماً لام الفعل الناقص عندهم ياء . ومن العبارات التى وردت فيها هذه الأفعال : « نجى من هسلطان » أى نجى من السلطان و « رعى هضآن » أى رعى الضآن و « هأبل » أى الإبل و « همعز » أى المعز و « هبقر » أى البقر . وفى نقش من نقوشهم « ورعى هأبل سنة مرق نبط جوز » أى رعى الإبل سنة مرق النبط بهذا الوادى . ومعنى كلمة مرق في النقش مر ، وهى تستخدم بنفس هذا المعنى في لهجاتنا المصرية . ومن آلهتهم رضا واللوات ومناة وبعل وشيع هقوم أى شيع القوم وهو إله مشهور عند النبط ، قيل إنه لا يشرب الخمر وكذلك عابده .

ولو أنه جاءتنا نماذج طويلة من نقوش الصفويين وأبناء عمومتهم الثموديين

والمحليين لأنهم تمكن الحكم بدقة على لهجاتهم جميعاً ، في صورة واضحة ، ومن المؤكد أنها تصور ضرورياً من نمو العربية وتطورها في طريق اكتمالها ، ومن المهم أن نعرف أن هذه النقوش جميعاً تنتهى بالقرن الثالث الميلادى . وأقرب منها إلى فصحانا نقوش النبط الذين عاشوا في شمالى الحجاز وكونوا لهم إمارة اتخذوا مدينة سَلَع (بطرا - Petra) حاضرتها الكبرى ، وموقعها الآن وادى موسى في جنوبى فلسطين . وكان لهم في الجنوب حاضرة صغرى هي الحِجْر وموضعها الآن يسمى مدائن صالح ، وكان لهم في الشمال حاضرة صغرى ثانية هي بُصْرَى بحوران في الشام . وظلت هذه الإمارة مزدهرة من القرون الأخيرة قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦ م ، كما قدمنا ، إذ قوّضها الرومان ، غير أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية في تدمر وكونوا بها إمارة ظلت إلى سنة ٢٧٣ إذ خشي الرومان من اتساع سلطان أمراءها ، فحاربوا ملكتها زنوبيا ، وما زالوا بها حتى أسروها ودمروا حاضرتها تدميرا . وبذلك ينتهى تاريخ النبط ، ويظهر أنهم لعبوا دوراً واسعاً في التجارة ، فقد كانت قوافلهم تسلم العُروض من عرب الجنوب ومن النُوبيين والمليانيين وتحملها إلى العراق وحوض البحر المتوسط .

والنبط عرب شماليون كانوا يتكلمون العربية الشمالية في أحاديثهم اليومية ، غير أنهم اختلطوا بالآراميين ، وكتبوا بأبجديتهم فظهرت في نقوشهم آثار آرامية كثيرة ، إذ نراهم يستعملون منهم بعض كلماتهم وقد يبقون في خطهم على بعض خصائص لغتهم . وهم كذلك خالطوا الروم والمصريين والعبريين ، فظهرت في نقوشهم أسماء قليلة أخذوها منهم ، يمكن أن تكون هذه الأسماء لأشخاص روميين ومصريين وعبريين عاشوا في إمارتهم .

وتمتد نقوش النبط في الأنحاء التي سيطروا عليها ، وقد كتبوها بالخط الآرامى المشتق من الخط الفينيقى ، وهي منشورة في الحِجْر وادى موسى وتيباء وشرق الأردن وسيناء وحوران بُصْرَى ودمشق وصيدا وجبل الدروز ، وتنتهى بالقرن الثالث الميلادى مثلها مثل النقوش السابقة . وكثير منها عثر عليه علماء الساميات في القبور وعلى أبوابها وفوق الصخور ، وهي تكتظ بذكر قرابينهم وما نذروه لأنفسهم ، وقد يؤرخون لها بأسماء ملوكهم ، وكثيراً ما يؤرخونها بالسنة التي انتهت فيها دولتهم الأولى وهي سنة ١٠٦ .

وأصحاب هذه النقوش من النبط يختلفون اختلافاً واضحاً عن أصحاب المجموعة السابقة من اللحيانيين والثموديين والصفويين في استخدامهم لأداة التعريف العربية ، فبينما كان يشيع عند الأولين استخدام الهاء في التعريف كما قدمنا كان يشيع عندهم استخدام أل المعروفة في فصحاءنا ، على أنهم قد يجارون الآراميين في تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف في نهايتها فقد نجدهم يكتبون القبر « قبرا » والمسجد « مسجدا » ولكن الغالب عليهم استخدام أداة التعريف العربية « أل » . وربما صنعوا ذلك في كتابتهم فحسب ، مجارة للآراميين الذين أخذوا منهم خطهم وأبجديتهم ، أما في حياتهم اليومية ولغتهم الدارجة فكانوا يستخدمون أل كما يدل على ذلك شيوخها في كتابتهم . وقد ميزوا في نقوشهم كما قدمنا بين الأعلام المنوعة من الصرف والمصروفة فكانوا يضيفون للأخيرة واوً دلالة على تنوينها ، مما بقيت آثاره في الخط العربي في مثل عمرو وعمر .

وهاتان الظاهرتان : أى استخدام أل في التعريف والواو في آخر الأعلام المصروفة يقرب بين هذه اللهجة والفصحى الجاهلية . ومما يلاحظ أنهم يكتبون أحيانا في كتابة أل باللام وحدها فيقولون أويكتبون عبد البعل هكذا عبد لبعل بحذف الألف ، وكأنهم سهلوها وجعلوها همزة وصل لا قطع . وإذا رجعنا إلى خصائص هذه اللهجة وجدناها حقاً شديدة الصلة باللغة الجاهلية ، فهي لا تكاد تفرق عنها في أبواب الضمير والفعل وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والنسبة والتصغير وحروف الجر والعطف وكذلك الشأن في التذكير والتأنيث للاسم والفعل . ونجدهم يذكرون بين آلهتهم الله جلّ وعز . وتدور في نقوشهم كلمات عربية كثيرة مثل سلام ونذر ونذور وحب وخلد وحسن ولطف ورءوف وسعود ومرأة وأمة وعبد ورب وسعد ، ويتقدم اسم القبيلة لفظ أل أو بنى مثل آل قصى وبنى سهم .

واستخرج لبيان من نقوشهم ثلاثمائة اسم تتفق مع الأسماء العربية وهي مدونة في كتابه : (Nabataean Inscriptions) من مثل أمين ، أمة ، أمة الله ، أوس ، إياس ، أوس الله ، أوس البعل ، بدر ، بكر ، تيم ، تيم الله ، تيم ذوشرا (يعنى عبد ذى الشرا) جذيمة ، جرم ، جمل ، حجر ، حارث ، حارثة ، حنظل ، حيان ، رجب ، زيد ، سبع ، سعد ، سلم ، مسلم ، سكيئة ، سمية ، أسود ، صعب ،

عدى ، عقرب ، على ، عمر ، عمير ، عميرة ، عياض ، غالب ، غانم ، غوث ،
مغير ، فهر ، قصي ، كعب ، لحم ، مجد ، امرؤ الله ، امرؤ القيس ، معن ،
مالك ، نصر ، نزار ، نعيمة ، نقيب ، تنوخ ، هاني ، وائل ، وحش ، ورد ،
وهب ، وهبان ، وهب الله .

والنبطية بذلك كله تعد وثيقة الصلة بعربية الجاهلية ، وهو طور قريب
منها قراباً شديداً . ومن المؤكد أن العرب أخذوا يتطورون بلغتهم تطوراً سريعاً
في القرون الأولى للميلاد بالضبط كما أخذوا يتطورون بالخط النبطي مشتقين منه
خطهم العربي على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع .

٣

نشوء الفصحى

ليس من السهل تحديد الزمن الذي اتخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائي
الذي تصوره الفصحى الجاهلية ، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب
والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنوع الواسع في الجموع والمصادر وحروف
العطف وأدوات الاستثناء والنفي والتعريف والتنكير والانتهاؤ بالمدنوع من الصرف
إلى نظام تام منضبط مضافاً إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها
لغة سامية احتفاظاً كاملاً ، وهي الناء والحاء والذال والظاء والضاد والغين .

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو
والتطور ، وقد رأينا نماذج منها في نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند
الجنوبي ، وهي نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين ، ونقوش أخرى كتبت
بأبجدية الآراميين ، وهي نقوش النبطيين ، غير أنها جميعاً لا تصور هذا التكامل
الذي انتهت إليه الفصحى ، والذي تمثله نصوص العصر الجاهلي منذ أواخر القرن
الخامس الميلادي ، وأوائل السادس ، فهل تم لها ذلك التشكل النهائي مع ظهور
الشعر الجاهلي أو أن ذلك تم في حقبة أبعد منه ؟ .

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة ، لسبب بسيط أو طبيعي ، وهو

أنه ليس بين أيدينا نقوش كثيرة ، نستطيع أن نعرف منها بالضيظ الزمن الذي يعد بدءاً حقيقياً للفصحى . وحقاً عثر علماء الساميات كما قدمنا في غير هذا الموضع على نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادى إلى القرن السادس ، غير أنها قليلة ، ثم هي قصيرة ، وأكثرها في أمور شخصية ، وليس بينها نص أدبي أو نص طويل يمكن أن نتبين في تضاعيفه جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التي كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش ، وجميعها على لسان الشخص الثالث الغائب ، وليس بينها نص على لسان مخاطب أو متكلم ، وهي تخلو خلواً تاماً من الشكل والحركات وحروف العلة وعلامات الإعراب .

على أن من يرجع إلى هذه النقوش يجدها تقرباً اقتراباً شديداً من فصحانا ، وقد وقفنا في الفصل الأول عند أقدمها وهو نقش النمارة المؤرخ بسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وهو لامرئ القيس ثاني ملوك الحيرة ، وُضع على قبره في النمارة شرق جبل الدروز ، وقد لاحظنا أن كاتبه استخدم كلمة بر الآرامية بدلا من ابن العربية ، غير أن النقش بعد ذلك تام في عروبه سواء من حيث الأسماء والأفعال ، أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل . وأيضاً فإن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطي يعد مقدمة للخط العربي . إذ توجد فيه الروابط بين الحروف كما تتخذ الحروف فيه شكلا أكثر استدارة .

ولعلنا لا نبعد إذ اتخذنا هذا النقش بدءاً لتكوين الفصحى ، وقد لُقب امرؤ القيس فيه بلقب ملك العرب ، وهي أول مرة نعر فيها على هذا اللقب ، وقد يكون في ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن العرب أخذوا يفكرون في إنشاء وحدة سياسية لهم منذ هذا التاريخ ، وكانوا قبله لا يفكرون في هذه الوحدة ولا في أن يستقلوا بخط خاص بهم يميزهم أو يميز كتابتهم من كتابة المسند الجنوبية وكتابة الآراميين الشمالية .

ومعنى ذلك أننا نتخذ من هذا النقش رمزاً لإحساسهم إحساساً عميقاً بوجود اتحادهم إزاء الدول التي كانت تناهضهم في الشمالين الغربي والشرقي ، ونقصد دولتي الروم والفرس ، فقد قضى الروم على دولة أسلافهم من النبط في سلع وتدمر وفرضوا سيادتهم على القبائل العربية المجاورة لهم ، وبالمثل فرض الفرس سيادتهم

على الحيرة وقبائل العراق . وهذا في الشمال ، أما في الجنوب فقد هاجم الحبش اليمن واستولوا عليها في أواسط القرن الرابع لمدة عشرين عاماً ، وعادوا في سنة ٥٢٥ فاستولوا عليها .

والذي لا ريب فيه أن هذه الأحداث جعلت العرب يشعرون أنهم مهددون في الشمال والجنوب ، وليس ذلك فحسب ، فإنهم رأوا الديانتين اليهودية والنصرانية وكذلك الديانة الفارسية المجوسية ، رأوا كل هذه الديانات تغزو دينهم . وكان هذا كله حافزاً لهم أن يقاوموا من يريدون أن يتخطفوهم ، فنمت شخصيتهم السياسية ، وأخذوا يكونون لهم إمارات مختلفة في الشمال ، يتجمعون حولها ، والتفتت قلوبهم وأهواؤهم حول مكة بيت أصنامهم وكنعبتهم الكبرى . وفي هذه الأثناء أخذوا يسقطون إلى الجنوب منذ القرن الرابع ليؤازروا إخوانهم اليمنيين في مقاومة عدوهم المشترك من الأحباش ، وكان اليمنيون يرحبون بهم ، لما يقدمونه لهم من عون ومساعدة .

وليس هذا كل ما نلاحظه ، فنحن نلاحظ أيضاً أن زمام القوافل التجارية يتحول إلى مكة ، فلم يعد بيد اليمنيين المهديين بالأحباش ولم يعد بيد النبط المهديين بالروم ، وإنما أصبح بيد المكيين البعيدين عن الدولتين ، وربما كانوا يرجعون في أصولهم إلى النبط ، وكأنما هبطوا إليها بعيداً عن الروم وجيوشهم وما يبغون من فرض سيادتهم عليهم . والمظنون أن التموديين هبطوا بدورهم إلى الطائف ، أما اللحيانون فسقطوا إلى منازل هذيل .

وفي هذه الأثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو نمواً سريعاً ، كما أخذ خطهم هو الآخر ينمو في سرعة ، على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زبد المؤرخ بسنة ٥١٢ للميلاد . وزيد خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، ونقشها مكتوب بثلاث لغات : العربية واليونانية والسريانية ، وهو يتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه ، وأهميته ترجع إلى أن خصائص الخط العربي الجاهلي تتكامل فيه . ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة في الحقبة الممتدة بينه وبين نقش النقش النمازة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية . وعلى مثاله نقش حران اللجج المؤرخ بسنة ٥٦٨ للميلاد ، وقد وُجد على باب معبد بنوه في الشمال الغربي لجبل الدرور جنوبي دمشق ، وجميع كلماته وعباراته عربية ، وهو يمضي على هذا النحو :

« أنا شرحيل (شرحيبيل) بر (بن) ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول (المعبد) سنة ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) خيبر بعم (بعام) . وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخيبر ، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقاً لقواعد النبط في كتابة أعلامهم المنصرفة ، وحذف حرف العلة من كلمة « عام » وهي نفس الصورة المألوفة في الأقاليم الإسلامية الأولى .

ونرى من ذلك أن الخط العربي تكامل مع أوائل القرن السادس كما تكاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائي بشهادة نصوص الشعر الجاهلي التي يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس ، فنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل ، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة ، هي الفصحى ، ينظم بها شعراء العرب جميعاً شعرهم . وتدل دلالات كثيرة على أن هذه اللغة أخذت تنتشر لا بين القبائل الشمالية وحدها ، تلك التي عاشت في الشمال ، فقد حملتها إلى الجنوب القبائل التي تسقط فيه ، وانجذب كثير من الجنوبيين إلى المحيط اللغوي الشمالي ، وخاصة من كانوا يجاورون الشماليين مثل سكان نجران وقبائل الأزدي في جنوبي الحجاز .

ومعنى ذلك أنه كان يعاصر اكتمال الفصحى حركة تعريب قوية في الجنوب ، ولسنا نريد أن نبالغ في هذه الحركة فإنها إنما كانت تتناول القبائل الشمالية من هذا الجنوب ، أما في داخل اليمن وفي ظفار فقد كانت اللغة الجنوبية لا تزال سائدة كما تدل على ذلك نقوشهم . ونستطيع الآن أن نفهم قول أبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »^(١) فإنه ينص على أن لسان اليمنيين الداخلين ومن يجرى مجراهم هو الذي يخالف لسان العرب الشماليين . بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن اليمنيين الداخلين أنفسهم أخذوا في التعريب ، فإن من يرجع إلى وثيقة أبرهة التي دونها سنة ٥٤٣ للميلاد عند ترميمه لسد مأرب^(٢) يلاحظ تواتراً في الكلمات أسماء وأفعالا من اللغة الشمالية ، وحقاً تحتفظ الوثيقة بجملة الخصائص اللغوية للغة الجنوبية ، لكننا نجد في تضاعيفها صيغاً تشبه الصيغ

المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي وتعليق جواد علي عليها .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص ١١ .

(٢) انظر هذه الوثيقة في الجزء الأول من

العربية شهماً تاماً ، من مثل : « كن لهو خلفتن وقسد » أى كان له خليفة وقاسد ، وكلمة قاسد معناها قائد فى اللغة الجنوبية .

فنحن لا نصل إلى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه حتى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها ، وأخذت تغزو العربية الجنوبية ، وتنتصر عليها انتصارات تختلف قرباً وبعداً ، فهى فى الجهات القريبة منها تكتسحها اكتساحاً ، وهى فى الجهات البعيدة تؤثر تأثيراً يختلف قوة وضعفاً . على أنه ينبغى أن نعرف بأن اليمينيين كانوا فى نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم ، اما فى حياتهم اليومية وخاصة فى أطرافهم الشمالية فلأنهم كانوا يتحدثون بعريبتنا الفصحى .

٤

لهجات جاهلية^(١)

على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة فى العصر الجاهلى كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها بعض القبائل ، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثانى للهجرة ، فسجلتها اللغويون ، غير أنهم لم يعنوا غالباً بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها فقد كانت تهمهم الصحة اللغوية من حيث هى ، وكأنهم يريدون التنبيه على ما يخالف اللغة الأدبية العامة التى نزل بلسانها القرآن الكريم . ونحن لا ننكر أنهم نصوا أحياناً على القبيلة التى تنطق اللهجة الشاذة ، ولكنهم لم يعمموا ذلك فيما حملوه إلينا بحيث أصبحنا أمام ركام واسع من لهجات لا نستطيع تعيين القبيلة أو القبائل التى كانت تنطق بها إلا فى الندرة والحين بعد الحين ، فمن ذلك الكشكشة والكسكة ، وهما تخصصان ضمير مخاطبة ، إذ كان بعض تميم وأسد ، وقيل أيضاً بعض بنى ربيعة يلحقون بكاف مخاطبة شيئاً فى الوقف ، وفى الوصل أحياناً ، فيقولون : رأيتكش وعليكش وبكش وكانت بعض قبائل ربيعة تلحق السين بدل

كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد العاشر ، العدد الأول وكتاب Ancient West-Arabian لرايين .

(١) انظر فى هذه اللهجات كتاب المزهر للسيوطى فى مواضع متفرقة وكتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة ليثان بمجلة

الشين فتقول رأيتكس وعليكس وبكس ، وكان منهم من يحذف الكاف ويضع مكانها الشين أو السين .

ومن ذلك العننة ، وهي في تميم وبعض قيس وأسد ، إذ يجعلون الهزمة عيناً في بعض الكلمات ، فيلفظون استعدى بدلاً من استأدى ، ويلفظون أعدى بدلاً من أدى ، ويقال إن بعض بني طيي كان يقول دأني عوضاً عن دعني . وكان هناك من يلفظ لعل لأن ، بإبدال اللام أيضاً نوناً ، وقالوا بدلاً من أن وأن عن وعن .

وتقرب من العننة الفحفحة ، وكانت في هذيل إذ تبدل الحاء عيناً ، ويقال إن بني ثقيف كانوا يصنعون صنيع الهذليين في ذلك فيقولون في حتى عني . وهذه اللهجات جميعاً كانت تشيع في بعض القبائل الشمالية المضربية ، ومثلها التصحيع وهو الإمالة ، إذ كانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُيملون . ويظهر أن ذلك لم يكن عاماً في القبيلة الواحدة ، فقد كان بعض الأفراد يميل وبعضهم لا يميل ، يقول سيبويه : « اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينصبُ بعض ما يميل صاحبه ، ويميل بعض ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب في لغته لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلط في لغته ولكن هذا من أمرهم » . ونستطيع أن نمد ملاحظة سيبويه إلى اللهجات الشاذة التي حكيناها ، فمن الممكن أن يكون بعض أفراد القبيلة قد تبع اللغة الأدبية العامة ، بل من الممكن أن تكون بعض العشائر في قبيلة بعينها قد هجرت لهجة قبيلتها ، ولعل هذا هو سبب اختلاط نسبة هذه اللهجات عند اللغويين إذ نرى بينهم اختلافاً في الكشكشة مثلاً هل كانت في تميم أو كانت في بكر أو كانت في قيس أو كانت فيهم جميعاً ، وأغلب الظن أن مرجع هذا الاختلاف إلى ما لاحظته سيبويه في الإمالة من أن عشيرة أو أفراداً في قبيلة تميل قد لا تميل ، وبالمثل يمكن أن يكون ذلك نفسه حدث في اللهجات الشاذة التي رويت عن بعض القبائل المضربية .

وقد نسب اللغويون إلى قبائل مضربية وأخرى قحطانية ما سموه الاستنطاء إذ

كانت قبائل هذيل وقيس والأزد والأنصار في يثرب تبدل العين نوناً في مثل أعطى فتقول أنطى ، وأغلب الظن أن هذا ليس إبدالا كما لاحظ ليّهان ، وإنما هما فعلان مختلفان .

وهناك لهجات نسبها للغويون إلى القحطانيين ، من ذلك الثالثة في قضاة وبهراء إذ يكسرون الفعل المضارع فيقولون: تعلمون وتكتبون وتنجحون كما نضع في عاميتنا المصرية . ومن ذلك العجعة في قضاة إذ يجعلون الياء المشددة جيما ، فيقولون تميمج في تميمي ، وقال ابن فارس إن إبدال ياء المتكلم جيما وُجد عند بني تميم ، وقال الزمخشري إن بني حنظلة التميميين كانوا يبدلون الياء المشددة لصيغة النسبة جيما مشددة .

ونسب الرواة إلى قبيلة كلب اليمنية ما سموه الوهم ، وهو كسر الهاء في ضمير الغائبين وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون: منهم وعنهم وبينهم . وسُمع عن قوم منهم ما سمي بالوكم إذ يكسرون الكاف في ضمير مخاطبين إذا سبقها ياء أو كسرة ، فيقولون : عليكم وبكم بكسر الكاف فيهما . واشتهرت حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيء بالطمطممانية ، وهي إبدال لام التعريف ميما ، فيقولون في السهم والبر والصيام : امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس إبدالا ، وإنما هي لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرفون بالألف والميم ، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابون من أن طيء قبيلة يمنية ، ولا تزال لذلك بقية في عاميتنا المصرية إذ تقول بدلا من البارحة إمبراح وأول إمبراح . وما ينسب إلى بعض القبائل اليمنية الشنشنية إذ يجعلون كاف الخطاب شيئا مطلقاً ، فيقولون بدلا من لبيك اللهم لبيك لبيش اللهم لبيش ، وهم في ذلك يلتقون بأصحاب الكشكشة في بعض وجوهها من المضريين . وينسب إلى بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء في بعض الكلمات فيقولون : النات بدل الناس . ويستشهد اللغويون على ذلك بقول علباء بن أرقم :

يا قَبَّحَ اللهُ بنى السُّعَلاتِ عمرو بن يربوعٍ شرارِ النّاتِ

ليسوا أَعْفَاءَ ولا أكياتِ

وواضح أنه استعمل النات بدل الناس والأكيات بدل الأكياس . على أن هذا الشاعر ليس حميرياً وإنما هو من بكر ، وأكبر الظن أنه اضطر لذلك من أجل القافية ورويها .

وفي كتب اللغة كثير من هذه اللهجات الشاذة التي كانت تنفرد بها بعض القبائل ، وقد عقد السبوطي في المزهري فصلاً لألفاظ اختلفت فيها لغة تميم والحجازيين ، ويمكن أن نمد هذا الفصل للبحث فيما كان بين القبائل الشرقية والغربية من خلافات لغوية .

ولعل أهم ما سجله اللغويون من فروق بين التميميين والحجازيين أن الأولين كانوا يحققون الهمزة وكان الثانون يسهلونها فمثل سأل يسأل سؤالاً عند الأولين يقابل سأل يسأل سؤالاً عند الثانين ، ومثل رثأت وعباءة ونبي عند الأولين يقابل رثيت وعباية ونبي عند الثانين . ويظهر أن ذلك لم يكن يطرد في كل الكلمات ولا على جميع الألسنة في الجنايين المتقابلين من الجزيرة . وكان التميميون يدغمون الحرف الثاني في الثالث في أمرٍ مثل ردة ، بينما كان يفك الحجازيون الإدغام فيقولون : اردد ، وهذه أيضاً فيما نظن كانت مسألة حيس ، فكان بين الفريقين من يجارى الفريق الآخر . وما اشتهر بينهما من فروق إهمال ما عند التميميين في نحو ما زيد قائم وإعمالها عند الحجازيين فيقولون ما زيد قائماً ، ومن ذلك أيضاً أن الحجازيين كانوا يُجرون « هلم » مجرى أسماء الأفعال مثل صه ، فيلزمونها طريقاً واحداً في مخاطبة المفرد والمفردة والاثنين والاثنتين والجماعتين ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلان وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء ، أما التميميون فكانوا يجرونها مجرى الأفعال ، فيقولون : هلم وهلمى وهلموا وهلمنن يا نسوة ، وبلغت الحجازيين نزل القرآن الكريم في قوله تعالى : « والقائلين لإخوانهم هلم إلينا » . ومن ذلك أمس عند الحجازيين فإنها تلزم البناء على الكسر ، أما التميميون فكانوا يقولون أمس في الرفع وأمس بفتح السين في الجر والنصب . ومن ذلك هيئات ، فإنها تلزم فتح التاء عند الحجازيين بينما تلزم الكسر عند التميميين فيقولون هيئات ، ورؤى فيها الإعراب بالحركات . ومن ذلك تنوين الترم في قوافي الشعر ، فقد كان الحجازيون يطلقون القافية ، ليفرقوا بين الشعر الذي يغنى والكلام المنشور ، وكان التميميون يبدلون المد في القافية نوناً ، على نحو ما عُرف عن جرير في قصيدته :

أَقْلَى اللوم عاذلٍ والعِتَابِ نِ وقولِي إنَّ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَنِي

فقد أبدل المد نوناً في « العتابين » و « أصابن » وهو يحذف في لغة

الحجازيين ، فيصبح البيت على هذا النمط :

أقلَى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبْتُ لقد أصابا

وروى اللغويون كثيراً من اختلاف الفريقيين في همس الحركات والجهر بها ومدّها ، فبينما يمد الحجازيون الألف في مثل كلاب يقصرها التميميون فيقولون كلب ، وبينما يقول الأولون ناداه يقول الثانون : ندّه ، وبذلك ننتطق في عاميتنا المصرية ، ويقول الحجازيون خمس عشرة بتسكين الشين وتميم تفتحها ، ومنهم من يكسرهما ومن يثقلها ، ويقول الحجازيون يبطش بكسر الطاء ويقول التميميون يبطش بضمها ، ويقول الحجازيون مريّة بكسر الميم ويقول التميميون مريّة بضمها ، ويقول الحجازيون الحج بكسر الحاء ويقول التميميون الحج بفتحها ، ويقول الحجازيون تخذت وونخذت ويقول التميميون اتخذت ، ويقول الحجازيون قلنسوة بالياء ويقول التميميون قلنسوة بالواو ، ويقول الحجازيون ينقد الدرهم ويقول التميميون ينتقد ، ويقول الحجازيون القار ، ويقول الحجازيون الكراهة ، ويقول التميميون الكراهية ، ويقول الحجازيون ليلة ضحيانة (مصححية) ويقول التميميون إضحيانة ، ويقول الحجازيون منذ ويسقط التميميون النون فيقولون مذ ، ويقول الحجازيون برأت من المرض بفتح الراء في الفعل ويقول التميميون برئت بكسرهما ، ويقول الحجازيون أنا منك براء ، ويقول التميميون برىء ، ويقول الحجازيون قلوب التصح وأقلوه قلاواً ويقول التميميون قليته وأقليه قلى ، ويقول الحجازيون لى بك إسوة وقدوة بكسر أولهما ويضمه التميميون فيقولون أسوة وقدوة بالضم ، ويقول الحجازيون : الشفع والوتر بفتح الواو في الوتر ، ويكسرهما التميميون فيقولون الوتر ، ويقول الحجازيون وكدت والتميمون أكدت .

ولعل خير مرجع يصور الاختلافات بين الفريقيين هو قراءات القرآن الكريم ، فمثلاً في قوله تعالى : (فنظرة إلى ميسرة) قرأ الجمهور نظرة بكسر الطاء وهي لغة قریش ، وقرأ مجاهد والضحاك نظرة بسكون الطاء وهي لغة تميم ، وقال جلّ ذكره : (ورضوان من الله أكبر) وقرئت رضوان بكسر الراء وهي لغة الحجازيين وقرئت بضمها وهي لغة تميم وبكر ، وقال تبارك وتعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقرأ الجمهور كسالى بضم الكاف وهي لغة الحجازيين ، وقرأها الأعرج بالكسر وهي لغة تميم وأسد ، وقال : (وليجدوا فيكم غلظة) وقرأ الجمهور غلظة

بكسر الغين وهي لغة الحجازيين ، وقرأها السلمي وأبو حنيفة بالضمة ، وهي لغة تميم ، وقال : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما) وقرأ الجمهور يستحي بياءين ، وهي لغة أهل الحجاز وقرأ ابن كثير يستحي بياء واحدة ، وهي لغة تميم ، وقال : (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول) وقرئت الرسل بتسكين السين وهي لغة الحجازيين ، وقرئت بضمها وهي لغة التميميين ، وقال : (وإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) وقرئت الهدى بتسكين الدال وتخفيف الهاء ، وهي لغة أهل الحجاز وقرئت بكسر الدال وتشديد الياء ، وهي لغة تميم ، وقال : (وآتوا حقه يوم حصاده) وقرئت الحصاد بكسر الحاء وهي لغة الحجازيين وفتحتها وهي لغة تميم وقيس ، وقال تبارك وتعالى : (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً) وقرئت عشرة بتسكين الشين وهي لغة الحجازيين وقرئت بكسرها وهي إحدى لغات تميم فيها كما قدمنا .

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلى بعض القبائل ، فقد قالوا إن بني مازن كانوا يبدلون من الباء ميماً ، فيقولون : باسمك بدلا من ما اسمك ، ويقولون بكة بدلا من مكة واليوباة بدلا من المومة وهي الفلاة ، ويقال إن اطبأن بدلا من اطمان لغة في بني أسد . ولا نعرف بالضبط أكان ذلك يشيع في كل الكلمات الميمية أو أن ذلك كان خاصاً ببعض الكلمات . ويقال إن بعض بني تميم كان ينطق أثاني بدلا من أثافي جمع أنثوية ، ولعل كلمة تم بمعنى فم عند إخواننا الشاميين قد تطورت عن ثم ، فقلبت الفاء فيها أولاً ثاء ثم أصبحت مع الزمن ثاء تخفيفاً . ويقال إن بني عبد القيس في البحرين كانوا يقولون رنز بدلا من رز وأرز ، كما كانوا يقولون إنجاص في إجاجص ، ويقال إن بعض بني تميم كانوا يقولون في أفلت أفلط بالطاء ، ويقال إن قريشاً كانت تقول التابوت بينما كان الأنصار في يثرب يقولون التابوه ، ويروى عن بعض الطائيين أنهم كانوا يقلبون ثاء الجمع المؤنث هاء في الوقف فيقولون البناء والأخواه في البنات والأخوات . ويقال إن بعض ربيعة كانوا يقولون ذكر في ذكر ، على نحو ما نعرف في عاميتنا ، ويقال أيضاً إن بعض التميميين كانوا يبدلون السين صاداً في مثل سوق وساق ، وفي عاميتنا راص بمعنى رأس . وتبادل الضاد والطاء في كثير من الكلمات ، ففي لغة تميم فاضت نفسه ، وفي لغة الحجازيين

والقيسيين والطائيين فاظلت نفسه بالطاء . ومن هذه اللهجات أن طيناً كانت تفتح الفعل اليأى في مثل بوى ورضى فتقول بوى ورضى ، وكانوا يقولون في مثل توصية وجارية وناصية مما يأوه مفتوحة توصاة وجارة وناصاة . وأثر عن هذيل أنها كانت تستخدم متى حرف جر بمعنى من ، وأنها كانت مثل كنانة والحجازيين تقول نعم بكسر العين بدلا من نعم وأنها كانت تكسر الباء في ابن فتقول ابن ، وأنها كانت تقول لإشاح في مثل وشاح ، ومر بنا أنها كانت تقلب الحاء عيناً في مثل حتى ، فتقول عتى ، وأنها كانت تقول في مثل أعطى أنطى ، وكانت تقلب الألف ياء في مثل عصاى وهواى وفتاى فتقول عصى وهوى وفقى وكانت تنطق مثل قال وباع إذا بنيا للمجهول قول وبوع بقلب الألف واواً ، وكانت لا تشيع كسرة المنقوص بل تهمسها وتخطفها كما جاء في بعض القراءات : (والليل إذا يسر) بدون ياء .

وقد عقد أحمد بن فارس في كتابه « الصحاحي » فصلاً حاول فيه أن يضبط اختلاف لهجات العرب ، فقال : « اختلاف لغات العرب من وجوه : أحدها الاختلاف في الحركات كقولنا نستعين بفتح النون وكسرهما ، قال الفراء هي مفتوحة في لغة قريش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون . ووجه آخر : الاختلاف في الحركة والسكون مثل قولهم معكم بفتح العين وتسكينها . ووجه آخر ، هو الاختلاف في إبدال الحروف نحو أولئك وأولالك . . ومنها قولهم أن زيداً وعن زيداً . ومن ذلك الاختلاف في الهمز والتلين نحو مستهزئون ومستهزون . ومنها الاختلاف في التقديم والتأخير نحو صاعقة (في لغة الحجازيين) وصاعقة (في لغة التميميين) . ومنها الاختلاف في الحذف والإثبات نحو استحيت واستحيت وصددت وأصددت . ومنها الاختلاف في الحرف الصحيح يُبدلُ حرفاً معتلاً نحو أما زيد وأيما زيد . ومنها الاختلاف في الإمالة والتضخيم في مثل قضى ورى ، فبعضهم يفتح وبعضهم يميل . ومنها الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله ، فثمهم من يكسر الأول ومنهم من يضم فيقول : (اشترُوا الضلالة) و (اشترُوا الضلالة) . ومنها الاختلاف في التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النخيل ، ومنهم من يقول هذا البقر وهذا النخيل . ومنها الاختلاف في الإدغام نحو مهتدون ومهدون . ومنها الاختلاف في الإعراب نحو ما زيد قائماً وما زيد قائم ، وإن هذين وإن هذان ،

وهذان بالألف دائماً لغة لبني الحارث بن كعب . . ومنها الاختلاف في صورة الجمع نحو أسرى وأسارى . ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس نحو يأمركم بضم الراء وتسكينها ونحو عني له بتسكين الفاء وكسرها . ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل هذه أمة وهذه أمت . ومنها الاختلاف في الزيادة نحو أنظرُ وأنظورُ » وقال ابن فارس إنه « يقع في الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الحصاد والحصاد بكسر الحاء وفتحها ، ويقع في الكلمة ثلاث لغات نحو الزُّجاج والزُّجاج والزُّجاج بضم الزاي وفتحها وكسرها ، ويقع في الكلمة أربع لغات... ويكون فيها خمس لغات نحو الشَّمَال والشَّمَل والشَّمَال والشَّيْمَل . ويكون فيها ست لغات نحو قسطاس بضم القاف وكسرها وبإبدال السين صاداً مع ضم القاف وقُسَّاط وقِسَّاط وقُسَّاط .

وراء هذه الاختلافات في نطق الكلمات كان بينهم اختلاف كثير في التعبير عن بعض المسميات مما نشأ عنه كثرة المترادفات في العربية مثل الذهب والعسجد والغيث والمطر والقمح والبُرّ ، قال الجاحظ في البيان والتبيين : « القمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية والبر لغة حجازية » ويقول المفسرون في تفسير قوله تبارك وتعالى : (وفومها) الفوم هو الحنطة . وكما يكون الترادف في الأسماء يكون في الأفعال مثل تقاتلوا وتعاركوا وتحاربوا وتواقعوا وتخاصموا . وكثيراً ما ينشأ الترادف من اختلافات لهجاتهم في حذف بعض الحروف أو إبدال بعضها ببعض مثل جدث وجدف بمعنى القبر ومثل تابوت وتابوه وتابوت ومثل اذكر واذكر وساط وشاط بمعنى اختلط ، ومثل لثام ولفام في لغة ومثل سجعت الحمامة وسججت بالحاء ومثل حظوة وحظلة في لغة .

والترادف في العربية كثير كثيرة مفرطة ، وهو يُرَدُّ في جمهوره إلى اختلاف اللهجات واختلاف القبائل فيما وضعته للمعاني الحسية والذهنية من أسماء وأفعال ، فإن اللغويين جمعوا كل ما دار على ألسنة القوم ، وبذلك اتسعت مادة المعجم العربي اتساعاً شديداً ، وهو في حقيقته معجم عدة لهجات ، نُظمت في سلك واحد هو العربية ، وحقاً ميّز اللغويون في مباحثهم الشواذ والشوارد والنوادر والمنكر والمتروك وغير الفصيح وساقوا في ذلك شواهد احتفظ السيوطي في المزهر بكثير منها ،

ولكنهم حين ألفوا المعاجم حشدوها فيها جميعاً . وقد ذهبوا يحصون أسماء السيف مثلاً ويقولون إنها خمسون ، وبالمثل أحصوا أسماء الأسد والفرس والبعير ، وأمدتهم الاختلافات اللغوية بين القبائل بمدد لا ينفد أو بعبارة أدق لا يكاد ينفد في ذلك كله . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن لغة من اللغات لا يمكن أن تجارى العربية في هذا الباب : باب الترادف ، فهو باب واسع فيها ، وقد أعدها ليثيغ فيها أسلوب من التكرار الصوتي والترادف الموسيقي عند الجاحظ وأضرابه .

ومما يرجع أيضاً إلى اللهجات الجاهلية وتباين التعبير فيها عن المسميات وتعدده باب الأضداد ، إذ نجد كلمة واحدة تستعملها قبيلة بمعنى ، ثم تشيع عند قبيلة ثانية لا بمعنى مغاير له فحسب ، بل بمعنى مضاد يناقضه ، مثل جلال بمعنى عظيم فإننا نجد المعاجم تنصّ على أنها تأتي بمعنى حقير ، ومن ذلك الجوّن يوصف به الأسود والأبيض ويدلّ عليهما ، ومثله البسّل بمعنى الحلال والحرام . وعلى شاكالة التضاد في الأسماء قد يكون التضاد في الأفعال فتعبر عن معنيين متناقضين مثل رجا بمعنى رغب وخاف ومثل شرى بمعناها الذي نعرفه وهو اشترى وبمعنى باع الذي يضاده . وتكثر الأضداد لنفس السبب الذي كثرت من أجله المترادفات ، وهو أنها ليست من استعمال قبيلة واحدة ، وقد أفرد اللغويون لها بسبب كثرتها أبحاثاً وكتباً مثل كتاب الأضداد لابن الأنباري . ونحن إنمّا نقصد ما يتضح فيه التضاد مما مثلنا به ، فإن اللغويين وسّعوا مفهوم الضد ، حتى شمل ما يكون بين استعمالين من فروق ضئيلة في المعنى مثل ناء بمعنى حمل ، وبمعنى حمل بمشقة ، وأيضاً فإنهم أدخلوا في الأضداد ما نشأ عن المجاز والاستعارة ، كاستخدام العرب كلمة السليم للملدوغ بأفمى تفاقلاً . فهذا ونحوه لا يُعدّ من الأضداد بمفهومها اللغوي الدقيق ، إنمّا الذي يعد من الأضداد مثل ما ذكرناه ومثل الرهوة بمعنى الارتفاع والانحدار ومثل الصّرّيم بمعنى الليل والصبيح والصارخ بمعنى المغيث والمستغيث والزبية للمكان المرتفع وحفرة الأسد . ومرجع ذلك كما قلنا أنهم كانوا في الجزيرة متباعدين ، فقد تطلق قبيلة كلمة على مسمى ، ولا تسمع بها القبيلة البعيدة ، فتضعها لمسمى يضاده ويكون ذلك اتفاقاً ومحض مصادفة قال أبو عبيد في باب الأضداد من كتابه الغريب المصنف : سمعت أبا زيد بن أوس الأنصاري

يقول : « السَّدْفَةُ في لغة تميم الظلمة والسدفقة في لغة قيس الضوء .. ولقمت الشيء ألمقه لماً إذا كتبته في لغة بني عقيل وسائر قيس يقولون لمقته بمعنى محوته »^(١). وعن ابن دريد : « خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة إلى ذى جَدْن (من أقيال حمير) فأطَّلِع إلى سطح ، والمُلك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثبْ أى. أقعد ، فقال : ليعلم الملك أنى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار الطفر (القفز) فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم »^(٢). ولم يكن هذا التضاد بين لغة نزار الفصحى ولغة الجنوبيين الحميرية فحسب ، بل كان أيضاً في كثير من الكلمات التي كانت تدور على ألسنة القبائل الشمالية لتباعد أوطانها .

ولا نريد أن نمضى في تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل في الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبعي وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها في صحف معدودة ، إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت في الجاهلية لهجات كثيرة ، سجل منها اللغويون أطرافاً ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعاً لأنها لم تكن تعنيهم في حد ذاتها ، إنما كان يعينهم التنبيه على ما يخالف الفصحى التي نُظِم بها الشعر الجاهلي ونزل بها القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصوا في أكثر الأحوال على القبيلة التي كانت تنطق باللهجة الشاذة ، وأيضاً فإنهم مع نصهم أحياناً على القبيلة لا نستطيع أن نبين كما قدمنا هل كل أفرادها كانوا يصطنعون تلك اللهجة أو أن ذلك كان خاصاً ببعض عشائرها أو ببعض أفرادها . ولعل في هذا كله ما يوضح صعوبة دراسة اللهجات الجاهلية ، فعلى الرغم من مادتها الوفيرة التي جمعها اللغويون تظل غير واضحة ويظل المجال واسعاً فيها للظن والتخمين ، وخاصة حين نحاول أن نضع حدوداً للهجة قبيلة بعينها كلهجة تميم أو لهجة هذيل . ونفس القدماء اضطربوا في نسبة كثير مما نسبوه إلى القبائل ، فتارة يجعلونه لتيمة أو لعشيرة تيمية وتارة يجعلونه لقيس أو لعشيرة قيسية ، وأخرى يجعلونه لقضاعة أو عشيرة يمنية ، وقد يُشركون بين قبائل متباعدة في الظاهرة اللغوية الواحدة .

(٢) الزهر ١/٣٩٦ .

(١) الزهر ١/٣٨٩ .

سيادة اللهجة القرشية

يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصططلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحي كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلاً جداً . وقد اختلفت آراء^(١) المستشرقين في هذه اللهجة التي كان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، فقال نولدكه إن الاختلافات بين اللهجات في الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، كانت قليلة ، وقد تركبت منها جميعاً هذه اللهجة الفصحى . وتبعه جويدى يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها ، إنما هي مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم . وذهب فيشر إلى أنها لهجة معينة ، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل . وذهب فالينو إلى أنها لغة القبائل التي اشتهرت بنظم الشعر والتي جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم ، وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادي . وفي رأيه أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهدبت في زمن مملكة كندة ، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب . ويرى هارتمان وفولر ز أنها لهجة أعراب نجد والحمامة وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ومضى فولر يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة ، ليصل إلى رأيه الذي سبق أن دحضناه ، وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية ، ثم كُتِبَ بعد ذلك بالأسلوب الفصيح . وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غذتها جميعاً^(٢) .

(١) النهضة في القاهرة .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع

دار المعارف) ٤٢/١ .

(١) راجع في هذه الآراء مقالة جواد عل

عن لهجات العرب قبل الإسلام في كتاب الثقافة

الإسلامية والحياة المعاصرة (نشر مكتبة

وعلى ضوء من رأى نالينو حاول بلاشير أن يقيم حدوداً لهذه اللهجة الأدبية معتمداً على القبائل التي كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم ، وهي تميم وقيس وأسد وهذيل وعُلميا هوازن وبعض العشائر الكنانية والطائية ، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مكة متجها شرقاً إلى الخليج العربي في البحرين ويمتد ثانيهما في الشمال من ضواحي يثرب إلى شمال الحيرة . وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلي والقرآن معاً وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر ، وهي لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية ، ولم يبين لنا هذه اللهجة التي تسامت على أخواتها ولا أسباب تساميتها ، ومضى يشكك في أن تكون لهجة قريش هي التي حققت لنفسها هذا التسمي^(١) .

وواضح أن كل هذه الآراء تعتمد على الفرض والحدس ، وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش التي نزل بها الذكر الحكيم ، يقول أبو نصر الفارابي : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس »^(٢) ويقول أحمد بن فارس نقلاً عن إسماعيل بن أبي عبيد الله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشاً قُطبان حرمه وجيران بيته الحرام ، وولاته ، فكانت وفود العرب من حججاً جها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ، ويتحاضرون إلى قريش في أمورهم . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخبروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنى كلامهم ، فاجتمع ما تخبروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاقتهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم ولا عجزية^(٣) قيس

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير

(٢) العجرفة : التقعر وطلب الغريب

الوحشي من الكلام .

٧٧/١ وما بعدها .

(٢) الزهر للسيوطي ٢١١/١ .

ولا كَشَكْشَكَةُ أُسَدٍ وَلَا كَسْكَسَةُ رَيْبَعَةٍ»^(١) . ويقول ابن خلدون « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم » فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم « حتى إن سائر العرب على نسبة بعمدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »^(٢) .

وفي رأينا أن المستشرقين جانبيهم التوفيق في الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب في أن الفصحى هي عين اللهجة القرشية ، فقد ذهبوا يطلبونها في لهجات القبائل النجدية ، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لا بد أن تقرن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار ، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة ، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث في حياتها بلغاتها المحلية . وما تزال اللغة الأدبية في الذبوع ، حتى تظفر بتلك اللغات المحلية التي تستخدم في الحياة اليومية العملية .

ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة في نجد على جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك كما أعوز المستشرقين ، بينما إذا طلبنا ذلك في قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادى ، إذ كانت حارسه الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتبوء اللهجات القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض

(١) انظر الصاحبى في فقه اللغة (طبعة) (٢) راجع الفصل الثانى والثلاثين من القسم السادس في مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩ .
المؤيد) ص ٢٣ .

الدلالة سوقها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُروَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما رده منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عَبَّدة التميمي ، فأنشدهم قصيدته : ” هل ما علمت وما استودعت مكتوم “ فقالوا : هذا سمط الدهر . ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : ” طحباك قلبٌ في الحسان طروب “ فقالوا : هاتان سمطا الدهر « (١) .

وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي النمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تفتح الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد ونختم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران . ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجدوا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه ، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الإسلام .

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة . أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العَجَاز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عُلَيا هوزن مثل سعد بن بكر بن معاوية وثقيف فذلك في رأيي إنما هو تفسير منهم للحديث النبوي : « أنزل القرآن على سبعة أحرف فافرقوا ما تيسر منه » فقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة ونظروا فوجدوا لهجات العرب ولغاتها

(١) أغاني (سأسى) ١١٢/٢١ .

كثيرة ، فاختاروا منها سبعة هي أفصحها ، وهي التي كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة ، وقد اختلفوا في بعضها . وفي رأينا أن الحديث لا يراد به تخصيص ، وإنما يراد به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأه بلهجاتها المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مسد^١ وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهلاً عليهم وتيسيراً حتى لا يجدوا مشقة وثقلاً في نطق بعض ألفاظه .

وروى الرواة عن أبي حاتم السجستاني أنه قال في كتابه الكبير في القراءات : « قرأ على أعرابي بالحرم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طيبى لهم وحسن مآب) فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فلما طال على قلت : طوطو قال : طى طى^(١) . فلم يستطع أن يثنى طبعه لأن لهجته القبلية في مثل طوبى مما وزنه فعلى تنطقه طيبى على وزن فعلى بكسر الفاء ، فتقلب الواو ياء والضممة في أول الكلمة كسرة . ولم ينفع في الأعرابي لفت^٢ أبي حاتم ولا تمرينه له على نطق طوبى . ولتل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم ، تخفيفاً للمشقة عليهم في تلاوته . وفعلاً قرأوه بلهجاتهم ، المرخص بها ، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التي دونها العلماء .

ونعتقد أن تفسير الحديث بأن القرآن نزل بسبع لغات معينة هي أفصح لغات العرب هو الذى ضلل المستشرقين ، فإنهم ظنوا أنه نزل بلغات قبائل نجدية ولم ينزل بلغة قريش ، وكأنهم لم يلاحظوا أن نفس هذه القبائل التي عيّن اللغويون هي أقرب القبائل إلى قريش ، ومن هنا جاءت فصاحتها ، ولعل ذلك هو الذى جعل الطبرى يذهب إلى أن لغة قريش نفسها كانت تستوعب الأحرف السبعة التي أشار إليها الحديث النبوى . وليس بمعقول أن يترك الرسول لغة قومه الذين بُعث فيهم إلى لغات أقوام آخرين ، وفي القرآن الكريم نفسه : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) فالقرآن بشهادته إنما نزل بلغة قريش ، وما دام المستشرقون مسلمون بأنه نزل بالفصحى ، مع استثنائنا لقولرز وأضرابه ، فإن هذه الفصحى إذن هي نفس لغة قريش التي لم يكن بها عيوج من لغات أولهجات شاذة كالنعنة والكشكشة وكسر أول المضارع .

(١) المصانص لابن جنى بتحقيق محمد على النجار
(طبع دار الكتب المصرية) ٧٥/١ - ٧٦ .

وربما كان من الأسباب التي ضللت المستشرقين أيضاً ودفعتهم عن محجة الصواب أنهم وجدوا اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتهم اللغوية يرحلون إلى قبائل نجدية منحازين عن قريش ، وكأنهم نسوا أن الزمن قد تغير وأن مكة دخلها أعاجم كثيرون في الإسلام وأن الفصحى فيها في أثناء القرن الثاني قرن جمع اللغة وتدوينها دخلتها شوائب من الأعاجم والموالي الذين كثروا فيها كثرة مفرطة . ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التي كانت لا تزال تحتفظ بصفاء لغتها . وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم علنياً هوازن وسفلى تميم وأسد وكنانة وهذيل . ويوضح أبو نصر الفارابي السبب في أنهم اقتصروا على تلك القبائل في جمع اللغة فيقول : « والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتلدى وعندهم أُخذت اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وطييم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حَضْرَى قط ولا عن سُكَّان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لحْم ولا من جُدَام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاة وغَسَّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة بمجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبيشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتداءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) » .

فاللغويون في القرن الثاني حين أقبلوا على القبائل النجدية يجمعون منها مادتهم إنما كانوا يتحرون ينباع التي لا تزال نقية صافية ، وليس في عملهم ما يشكك أي تشكيك في لغة مكة في أثناء العصر الجاهلي وفترة نزول القرآن الكريم ، فقد التمسوا بغيتهم في القبائل المجاورة لقريش مثل كنانة وهذيل وبعض عشائر قيس .

ومن المؤكد أن الفوارق في الجاهلية بين لهجة مكة ولهجات هذه القبائل كانت ضئيلة وأن هذه الفوارق كانت تتسع كلما ابتعدنا جنوباً أو شرقاً أو شمالاً . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصورها ، فإن الشعراء تضافروا منذ أوائل العصر الجاهلي على إذاعة اللهجة المكية في قبائلهم بما كانوا ينظمون فيها من أشعارهم .

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذبوعها وانتشارها بين العرب في الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلي ، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظِمَ بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتي سُمِّيت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها ، فاندفعوا يحاكونها ، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية . ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة في الإسلام ، فقد أقبل العرب في كل مكان شمالاً وجنوباً على الارتشاف من أفوايق لغته ، وقد أخذ يعممها لا في أنحاء الجزيرة القاصية وحدها ، بل في كل بلد إسلامي شرقاً وغرباً ، فإذا أعلامها تخفق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسي .